الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين في الأولية والمقابلة عند ابن قيم الجوزية، جمعًا ودراسة

Methodological Distinctions Between Ahl Al-Sunnah and Their Opponents Regarding Al-Awwaliyyah and Al-Muqabalah According to Ibn Qayyim Al-Jawziyyah: A Collection and Study

إعداد

نورة بنت راشد بن سالم الحويطان
Noura Rashid Salem Al-Hwaitan
محاضر، جامعة الأمير سطام بن عبدالعزيز

Doi: 10.21608/jasis.2026.499479

استلام البحث ٥ / ٢ /٢٠٢٦
قبول البحث ١٩ / ٣ / ٢٠٢٦

الحويطان، نورة بنت راشد بن سالم (٢٠٢٦). الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين في الأولية والمقابلة عند ابن قيم الجوزية، جمعًا ودراسة. ***المجلة العربية للدراسات الاسلامية والشرعية***، المؤسسة العربية للتربية والعلوم والآداب، مصر، ١٠(٣٦)، ٧١٥- ٧٣٦.

http://jasis.journals.ekb.eg

الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين في الأولية والمقابلة عند ابن قيم الجوزية، جمعًا ودراسة

المستخلص:

يهدف هذا البحث إلى بيان الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين في الأولية والمقابلة عند ابن قيم الجوزية؛ وذلك ببيان المراد بمفهوم الأولية والمقابلة، وإيضاح الفرق بين الأولية والمقابلة عند أهل السنة والأولية والمقابلة عند المخالفين، مع إبراز سبق ابن قيم الجوزية وجهوده في علم الفروق المنهجية؛ حيث أظهر ابنُ قيم الجوزية بمنهج الأولية والإحاطة به أهميةَ بعض المسائل، وكشف عن بطلان أخرى، بتتبع أوائل المسائل والأقوال؛ لا سيَّما عند نقض البِدَع وأصول الفِرَق؛ مما يزيد المسلم تمسُّكًا بمنهج السلف، واقتفاء أثره، ويمهِّد الطريق للناس في معرفة الحق، وفساد الباطل، وقد تناولت عددًا من الشواهد التطبيقية من مؤلفات ابن قيم الجوزية تعكس ما تهدف إليه الدراسة. وقد اقتضت طبيعة هذا البحث اتِّباع المنهج الاستقرائي والتحليلي والمقارن، وقد خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها: أن تفريق ابن قيم الجوزية بين المنهجين طريقة متميزة فريدة، التزم فيها ببيان منهج السلف الصالح متبعًا من سبقه من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم، كما التزم طريقة السلف في بيان منهج المخالفين والرد عليهم ومناقشتهم، وأن في تفريق ابن قيم الجوزية بين المنهجين، تأصيلًا للسلوك الشرعي الصحيح المبني على الكتاب والسنة، وربطه بالاعتقاد، وهو جزء من منهج أهل السنة القائم على العلم النافع والعمل الصالح، وخلصت الدراسة كذلك إلى أن معرفة الأوليات في علم العقيدة منهج من مناهج أهل السنة في تقرير الحق والرد على المخالفين.

الكلمات المفتاحية: الفروق المنهجية- الأولية- المقابلة- ابن قيم الجوزية.

Abstract

This research seeks to elucidate the methodological distinctions between Ahl Al-Sunnah and their opponents with respect to the concepts of Primacy (*Al-Awwaliyyah*) and Collation (*Al-Muqabalah*) as articulated by Ibn Qayyim Al-Jawziyyah. It proceeds by defining these two concepts and clarifying the differences in their application between Ahl Al-Sunnah and their opponents. The research further highlights the forerunning role of Ibn Qayyim Al-Jawziyyah in formulating these methodological distinctions. Through his approach to Primacy (*Al-Awwaliyyah*) and its wide-reaching comprehension, Ibn Qayyim al-Jawziyyah demonstrated the weight and significance of certain matters while exposing the fallacies of

others. He achieved this by tracing issues and assertions back to their foundational premises and earliest formulations, particularly in the context of refuting religious innovations (*Bidʿah*) and the foundational principles of diverse sects. This approach serves to reinforce a commitment to the methodology of the righteous predecessors (*Salaf*), fosters a rigorous adherence to their tradition, and helps people to know truth and to discern the harm of falsehood. The study examines a selection of applied examples drawn from Ibn Qayyim's writings that reflect these objectives. Given the nature of the topic, the research adopts inductive, analytical, and comparative approaches. The study concluded several key findings, foremost among them that Ibn Qayyim's distinction between these two methodologies stands as a one-of-a-kind and high-standing method. He consistently adhered to clarifying the methodology of the righteous predecessors, following the example of the Companions, the Followers, their successors, and those who adhered to their way. He also remained faithful to the Salaf's methodology in presenting the approaches of opponents and responding to them through refutation and reasoned argumentation. Moreover, this distinction contributes to grounding sound Islamic practice based on the Qur'an and the Sunnah, binding it closely to creed. Such an approach represents a foundational component of the methodology of Ahl al-Sunnah, which is built upon beneficial knowledge and righteous action. The study further concluded that identifying "Primacies" (*Al-Awwaliyyat*) within the domain of creed constitutes one of the key methodological tools used by Ahl Al-Sunnah in upholding truth and answering opponents.

Keywords: Methodological Distinctions; Primacy (*Al-Awwaliyyah*); Collation (*Al-Muqabalah*); Ibn Qayyim Al-Jawziyyah.

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفُسِنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلِ فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إلهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له، وأشهد أن محمدًا -ﷺ- عبدُه ورسوله؛ أمَّا بعدُ:

فمِن رحمة الله بعباده أن أَرسَلَ إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب؛ ليكونوا فُرقانًا بين الحق والباطل، وكان على رأسهم محمد -ﷺ- الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق؛ ليُظهِرَه على الدين كله، ففرَّق الله به بين الهدى والضلال، والرشاد والغَيِّ، والحق والباطل، وبيَّن طريقَ أهل السعادة، وطريق أهل الضلال.

وقد أسهم عِلمُ الفروق المنهجية في التمييز بين مسلك الفريقين في الوصول إلى الحق، ومفارقته للباطل؛ حيث تميز أهل السُّنة عن مخالِفِيهم بمنهج واضح، مستندين فيه إلى كتاب الله، وسُنَّة نبيِّه ﷺ. ومن هنا ظهرت أهمية علم الفروق المنهجية في ضرورة الالتزام بالمنهج الصحيح في حفظ الدين، وبيان الحق، ورد الباطل؛ ولذا تتابعت مناهج العلماء في مؤلفاتهم لعلوم الشريعة ببيان منهج الفريقين، مفرِّقين بين أهل الحق وطرائقهم، وأهل الباطل وطرائقهم، ومن هؤلاء العلماء الأجلَّة ابن قيم الجوزية رحمه الله؛ فقد حرَّر في كتبه منهجًا فريدًا في الفروق بين أهل السُّنَّة والمخالفين؛ فأصَّل القواعد، والأحكام، وحقق مواطن الاختلاف، وساق صنوف الأدلة؛ فأخرج للناس علمًا جمًّا، وأسلوبًا فريدًا، وفكرًا خصبًا جاريًا على سَنَن مَن قبله في الرسوخ في العلم، وثبات القدم في التحقيق، فحفظ الله به العلم، وأقام به الحُجة.

فكان هذا البحث بعنوان: (الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين في الأولية والمقابلة عند ابن قيم الجوزية جمعًا ودراسة).

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- الوقوف على منهج السلف في بيان الفروق المنهجية بين أهل السنة والمخالفين.

٢- بيان الفروق الجوهرية في كيفية استخدام أهل السنة للأولية والمقابلة مقارنة بالمخالفين.

٣- عناية ابن القيم رحمه الله ببيان الفروق المنهجية، وضربه في هذا العلم بسهمٍ وافر.

٤- بيان شواهد ابن القيم في هذه الدراسة مما يساعد في معرفة الحق، وبيان نقض البِدَع وأصول الفرق المخالفة.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة هذا البحث في الجواب عن الأسئلة التالية:

١- ما المقصود بمفهومي الأولية والمقابلة؟

٢- ما أوجه الاختلاف بين أهل السنة والمخالفين في استخدام الأولية والمقابلة؟ وكيف استطاع ابن قيم الجوزية كشف بطلان أصول الفرق المخالفة بردِّ فروعها إلى أوائلها؟

أهداف البحث:

١- بيان المراد بمفهوم الأولية والمقابلة.

٢- بيان الفرق بين الأولية عند أهل السنة والأولية عند المخالفين.
٣- بيان الفرق بين المقابلة عند أهل السنة والمقابلة عند المخالفين.
٤- إبراز سبق ابن قيم الجوزية وجهوده في علم الفروق المنهجية.

الدراسات السابقة:

بعد البحث والاطلاع، لم أقف على دراسة تتناول موضوع هذا البحث.

خطة البحث:

اشتمل هذا البحث على: مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة.

المقدمة، وفيها: أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، وأهدافه، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهجه.

المبحث الأول: بيان مفهوم الأولية والمقابلة.
المبحث الثاني: الأولية بين أهل السنة والمخالفين؛ وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: الفرق المنهجي في الأولية.
المطلب الثاني: الفرق المنهجي بين أهل السنة والمخالفين في الأولية.
المطلب الثالث: نموذج تطبيق الأولية بين أهل السنة والمخالفين.
المبحث الثالث: المقابلة بين أهل السُّنَّة والمخالفين؛ وفيه ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: الفرق المنهجي في المقابلة.
المطلب الثاني: الفرق المنهجي بين أهل السنة والمخالفين في المقابلة.
المطلب الثالث: نموذج تطبيق المقابلة بين أهل السنة والمخالفين.
الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

منهج البحث:

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث اتِّباع المنهج الاستقرائي في تتبع شواهد الأولية والمقابلة في كتب ابن القيم رحمه الله، والتحليلي في بيان مفهوم الأولية والمقابلة، والمقارن في المقابلة وبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين أهل السنة وبين طرائق أهل البدع والمخالفين.

تمهيد

إن الغاية التي جاءت من أجلها رسالة الإسلام هي عبادة الله وحدَه لا شريك له، وترك عبادة ما سواه، وقد بيَّن الله كلَّ ما يُعِين الإنسان على بلوغ هذا الهدفِ والوصول إلى هذه الغاية، ومن ذلك ما يساعد في فهم بعض المسائل العقَدية والإيمان بها؛ للحفاظ على عقيدة التوحيد صافيةً نقيَّة.

ولما كان الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله قد ضرب في هذا العلم بسهمٍ وافر، وأحرز السبق في منهجٍ سار فيه على طريقة السلف الصالح؛ ففي منهج الأولية والإحاطة به أظهر ابنُ قيم الجوزية أهميةَ بعض المسائل، وكشف عن بطلان أخرى، بتتبع أوائل المسائل والأقوال؛ لا سيَّما عند نقض البِدَع وأصول الفِرَق؛ مما يزيد المسلم تمسُّكًا بمنهج السلف، واقتفاء أثره، ويمهِّد الطريق للناس في معرفة الحق،

وفساد الباطل، وهو ما قُصِد بيانُه في هذه الدراسة من شواهد ابن قيم الجوزية رحمه الله.

وأمَّا في منهج المقابلة؛ فإن ابن قيم الجوزية رحمه الله درس هذه المذاهب المتعددة، والفِرَق المختلفة، ورمى في دراسته لها إلى نقدها، ومِن ثَم مقابلتها بمنهج أهل السنة؛ لبيان قُربها، أو الأقرب منها، أو بُعدها وخلافها للحق؛ ليظهر بتلك المقابلة الحق ويبطل الباطل، كما يفرق بين مراتب المسائل عند المخالفين؛ فمَن كان أكثرَ صوابًا كان أحقَّ أن يُقدَّم على ما هو دونَه تنزيلًا وتفضيلًا، وهذا هو العدل الذي جاء في الشريعة الإسلامية، وعَمِل به أهلُ السنة منهجًا علميًّا(١)؛ فإن الجهل بمراتب الخير والشر قد يؤدي بالإنسان إلى الظلم والعدوان(٢).

وعليه؛ كان تقسيم هذا البحث إلى ثلاثة مباحث؛ الأول منها لبيان المفاهيم، والثاني لبيان منهج الأولية، والثالث لبيان منهج المقابلة في نصوص ابن قيم الجوزية رحمه الله.

المبحث الأول: بيان مفهوم الأولية والمقابلة

لما كان عنوان هذا المبحث في الأولية والمقابلة، فإني بعون الله أوضح بإيجاز مفردات هذا العنوان بما يبين المراد، ومن ذلك: كلمة الأولية، وكلمة المقابلة.

أولًا: تعريف الأولية.

لغةً: الهمزة والواو واللام أصلان: ابتداء الأمر وانتهاؤه. وجمعه أوَّليَّات.

فالأول مبتدأ الشيء، فيقال: "وأوَّل ذي أوَّل"؛ أي: قبلَ كلِّ شيء.

والأصل الثاني انتهاؤه، فيقال: "أوَّل الحُكمَ إلى أهله"؛ أي: أرجَعَه وردَّه إليه.

والأول والأُولى بمنزلة أَفْعَل وفُعْلَى. وأَوَّليَّة مفرد وجمعها أوليات(٣).

قال الزجاج في قوله الله تعالى: {إن أول بيت وُضع للناس للذى ببكة مباركًا} [آل عمران: ٩٦]: "أول في اللغة، على الحقيقة: ابتداء الشيء. قيل: وجائزٌ أن يكون المبتدأ له آخِر، وجائز ألَّا يكون له آخر؛ فالواحد أول العدد، والعدد غيرُ مُتَنَاهٍ؛ ونعيمُ الجنة له أول، وهو غير منقطع"(٤).

واصطلاحًا: الأول فردٌ لا يكون غيره من جنسه سابقًا عليه، ولا مقارنًا له(٥).

---

(١) الموازنة العقدية عند ابن تيمية: دراسة في مراتب الشرور والخيرية، بدر بن سعيد الغامدي (ص٧).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، ابن تيمية (٥١٤/٢).

(٣) انظر: العين، الفراهيدي (٣٦٨/٨)، معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عمر (١٤٠/١).

(٤) تهذيب اللغة، الأزهري (٣٢٨/١٥).

(٥) التعريفات، الجرجاني (ص٣٩)، وانظر: الكليات، الكفوي (ص٢٠٧).

والمعنى اللغوي يوافق الاصطلاحي من ابتداء الشيء وانتهاؤه إليه، وهو ما قُصِد بيانه في هذا المبحث من لفظ الأول.

ثانيًا: تعريف المقابلة.

لغة: القاف والباء واللام أصلٌ واحد صحيح، وهو يدل على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك(٦)، فالمقابلة هي ما كان مستقبِلَ الشيء(٧).

واصطلاحًا: جاء في المعجم الوسيط: "أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"(٨). وفي معجم اللغة: قابَل بين نصَّين؛ أي: قارن(٩).

وقيل: "هي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالفه في بعضها"(١٠).

ومفهوم المقابلة بالنظر إلى المعنى اللغوي واضح، وإن كانت هذه اللفظة تختلف في معناها الاصطلاحي بحسَب العلم الذي تُستخدَم فيه؛ فالمقابلة تناولتها الدراسات القديمة بوصفها علمًا من علوم البلاغة، حيث ذكرها بعضُهم في أنواع المعاني، وعرَّفها بـ: "أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض، أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطًا، ويُعدِّد أحوالًا في أحد المعنيين؛ فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شَرَطَه وعدَّدَه، وفيما يخالف بأضداد ذلك"(١١). وقد تكرَّر هذا التعريف بألفاظٍ متقاربة عند كثير من النُّقَّاد والبلاغيّين، كما جاء ذكر هذه اللفظة عند الحكماء فقالوا: "امتناع اجتماع شيئين في موضوعٍ واحد، من جهةٍ واحدة"(١٢).

ولا أريد الإسهاب في المعنى الاصطلاحي في أنواع العلوم المختلفة، فاستعراض مفاهيم هذا المصطلح قد يطول؛ لعمق الموضوع وسعته، وقد قصدتُ به في هذا المبحث بالنظر لمعناه اللغوي الموافق للمعنى الاصطلاحي العام: ما يذكره ابن قيم الجوزية في مقارنته بين أقوال المخالفين فيما بينهم، ثم مقابلتها بمنهج أهل السنة؛ لبيان قُربها أو بُعدِها من الحق.

وفضَّلتُ مصطلح "المقابلة" على غيره من المصطلحات القريبة (كالموازنة، والمقارنة)؛ لدلالته التامَّة على فكرة المواجهة والتضاد، التي قُصد بيانها في هذا المبحث(١٣).

---

(٦) انظر: معجم مقاييس اللغة، ابن فارس (٥/٥١)، الصحاح، الجوهري (٥/١٧٩٧).

(٧) انظر: العين، الفراهيدي (٥/١٦٧).

(٨) المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين (٢/٧١٣).

(٩) انظر: معجم اللغة العربية، أحمد مختار عمر (٣/١٧٧٠).

(١٠) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٣/٤٥٨).

(١١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر (ص٤٧).

(١٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي (٢/١٦٢١).

(١٣) انظر: المقابلة في القرآن الكريم، عبد القادر بن عيسى بطاهر (ص٢- ١٧).

وبعد عرض معنى الأولية والمقابلة، يأتي في المبحثين التالين مزيد بيان لهذه المفاهيم في شواهد ابن قيم الجوزية رحمه الله.

المبحث الثاني: الأوَّليَّة بين أهل السنة والمخالفين

الأوَّليَّات من فنون العلم وطرائقه، وهي منهج صحيح للوصول إلى الحق والثبات عليه، ولابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى- جملة وافرة فيها، وجدتُها منتشرةً في مواضعَ من كتبه رحمه الله. وقد اختصَّت الدراسة بما جاء في الأوليَّات من الفروق بين أهل السنة والمخالِفين، وسأجتهد في بيان منهجه -رحمه الله- الذي وافق فيه منهجَ السلف الصالح في النصوص التالية:

المطلب الأول: الفرق المنهجي في الأولية

بيَّن -رحمه الله- في مدارج السالكين أولَ ما يجب على المكلَّفين، قائلًا: "إن مقام التوحيد أَوْلى المقامات أن يُبدَأ به، كما أنه أول دعوة الرسل كلِّهم، قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثَه إلى اليمن: ((فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إلهَ إلَّا الله))، وفي رواية: ((إلى أن يعرفوا الله))؛ ولأنه لا يصح مقامٌ من المقامات، ولا حالٌ من الأحوال إلَّا به؛ فلا وجهَ لجعله آخِرَ المقامات، وهو مفتاح دعوة الرسل، وأول فرضٍ فرَضَه الله على العباد، وما عدا هذا من الأقوال فخطأٌ؛ كقول من يقول: أول الفروض النظر، أو القصد إلى النظر، أو المعرفة، أو الشك الذي يوجب النظر.

وكل هذه الأقوال خطأ؛ بل أول الواجبات مفتاح دعوة المرسلين كلهم، وهو أول ما دعا إليه فاتِحُهم نوح، فقال: {يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره} [الأعراف: ٥٩]، وهو أول ما دعا إليه خاتِمُهم محمد ﷺ"(١٤).

وفي المعنى ذاته يقول: "إن أول واجبٍ يجب على المكلَّف: شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم"(١٥). فهنا يبين ابن القيم أن التوحيد أولُ واجبٍ على الناس جميعًا، وأول ما يُدعى به إلى الإسلام؛ فهو مبدأ كل خير علمًا وعملًا، فإن صح كان ما بعده من العبادات صحيحةٌ مقبولة، خلاف ما ذكره المخالفون في أول واجب على المكلَّف؛ حيث تعدَّدت أقوالهم، وتعددت آراؤهم.

وفي فصل (ذم الكبر والحرص)، يقول: "أول ذنبٍ عصى الله به أبَوَا الثقلَين: الكِبر والحرص، فكان الكبر ذنبَ إبليس اللعين، فآلَ أمرُه إلى ما آل إليه. وذنب آدم -على نبيِّنا وعليه السلام- كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية؛ وذنب إبليس حمله على الاحتجاج بالقَدَر والإصرار، وذنب آدم أوجب له إضافتَه إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

---

(١٤) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (ص٤٤٨- ٤٥٠).

(١٥) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (ص٣٨١٥).

فأهلُ الكبر والإصرار، والاحتجاج بالأقدار: مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهلُ الشهوة، المستغفرون التائبون المعترِفون بالذنوب، الذين لا يحتجُّون عليها بالقَدَر: مع أبيهم آدم في الجنة"(١٦).

المطلب الثاني: الفرق المنهجي بين أهل السنة والمخالفين في الأولية

يقول النبي ﷺ لما بعث معاذ إلى أهل اليمن: ((إنك تَقْدَمُ على قومٍ من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحِّدوا الله تعالى، فإذا عرَفوا ذلك، فأخبِرْهم أن الله قد فرض عليهم خمسَ صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا، فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاةً في أموالهم، تؤخَذ من غنيِّهم فتُرَدُّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتَوَقَّ كرائم أموال الناس))(١٧). هذا الحديث عظيمٌ في الأوليات للدعوة إلى توحيد الله، وهو ما استدل به ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في بيان أول الواجبات وأساس الإسلام، مقارنًا بين المنهج الصحيح وبين منهج أهل الكلام ممَّا قرَّرُوه في أول ما يجب على المكلَّف من النظر، أو القصد إلى النظر، أو المعرفة، أو الشك الذي يوجِب النظر، وهذه المسألة تُبرز أهميةَ هذا العلم في معرفة الأوائل من المسائل، وإدراك أهميتها، خاصةً في وجود بعض الأدلة التي تنص على الأولية؛ كحديث عمران بن حُصَين الذي رواه البخاري، حيث قال أهل اليمن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئناك لنتفقَّه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: «كان الله ولم يكن شيءٌ قبلَه، وكان عرشُه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء"(١٨). كما جاء في الحديث الآخَر عن بدء الخلق عن طارق بن شهاب، قال: سمعتُ عمر رضي الله عنه يقول: ((قام فينا النبيُّ ﷺ مقامًا، فأخبَرَنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهلُ الجنة منازلَهم، وأهل النار منازلهم، حَفِظَ ذلك مَن حَفِظَه، ونَسِيَه مَن نسيه))(١٩)(٢٠). ففي العلم بأوائل الأمور يَستبين طريقُ الخير الذي أوَّلُه الهدى، وطريق الشر الذي أوَّلُه الضلال.

---

(١٦) مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية (ص٢٢٥١).

(١٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (١١٤/٩)، رقم الحديث: (٧٣٧٢).

(١٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: {وكان عرشه على الماء} [هود: ٧]، {وهو رب العرش العظيم} [التوبة: ١٢٩] (١٢٤/٩)، رقم الحديث: (٧٤١٨).

(١٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في قول الله تعالى: {وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه} [الروم: ٢٧] (١٠٦/٤)، رقم الحديث: (٣١٩٢).

(٢٠) انظر: الأوائل في مسائل الاعتقاد جمعاً ودراسة، سامي بن محمد بن الرثيع المغذوي، ص٢-١٥، ٣٧٢- ٣٧٣، إشراف الدكتور: عارف بن مزيد بن حامد السحيمي، رسالة

كما بيَّن ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في نصوصه أولَ ذنبٍ عُصي به الله سبحانه، وكان سببًا في ضلال إبليس ومَن تَبِعَه، وهو الكبر والحرص، وهو منهجٌ عاقِبَتُه ما آلَ أمرُه إليه من اللَّعنِ والطَّرد عن رحمة الله، وهو ما يخشى على أتباعه ممن يشاركونه في الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار، خلاف أول ذنب وقع من أبينا آدم -على نبيِّنا وعليه السلام- فإنه كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية؛ وهو ما يُبيِّن أن الجهل بمعرفة هذه الأوليات قد يؤدي بصاحبه لغضب الله.

كما أن هذه المسألة في بيان أولية الذنوب التي عُصي الله بها، تُبيِّن مسألةً عظيمة ذكرها ابن قيم الجوزية في مواضع أخرى من كتبه، وهي أن "ترك الأمر عند الله أعظمُ من ارتكاب النهي؛ لأن آدم نُهي عن أكل الشجرة، فأكل منها فتاب عليه، وإبليسُ أُمر أن يسجد لآدم فلم يسجد، فلم يَتُبْ عليه. قلت -أي ابن قيم الجوزية-: هذه مسألة عظيمة لها شأن، وهي أن ترك الأوامر أعظمُ عند الله من ارتكاب المناهي"(٢١). وذكر ثلاثة وعشرين وجهًا في ذلك، منها ما كان في شأن آدم وإبليس؛ حيث إن ذنب ارتكاب النهي مصدرُه في الغالب الشهوة والحاجة، خلاف ذنب ترك الأمر؛ فإن مصدره في الغالب هو الكِبر والعزة، واللهُ -سبحانه- لا يُدخِل الجنة من كان في قلبه ذرةٌ من كِبر، ويُدخلها من مات على التوحيد وإن زَنَى، وإن سرق(٢٢).

فهذه الأوليات في معرفة أساس العقيدة، وأوائل ما يجب، تُثبِّت المؤمن وتزيده إيمانًا ويقينًا، كما أن معرفة بدايات الضلال وأصول الانحراف منهجٌ ضروري للحذر من الباطل وردِّه(٢٣)، وهذه النصوص ممَّا يُبين أهمية هذا العلم في تقرير الحق في منهج أهل السنة، وفساد منهج المخالفين، الذي سيتبين في النماذج التالية.

المطلب الثالث: نموذج تطبيق الأولية بين أهل السنة والمخالفين

ممَّا ثبت في الكتاب والسنة، أن أول أمر يُسأل عنه الإنسان في قبره هو سؤال الملَكَين له، بـ: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟ وهي المشهورة بفتنة القبر؛ قال الطبري في تفسير قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} [سورة إبراهيم: ٢٧]: "والصواب من القول في ذلك، ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أن معناه: {يُثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا}، وذلك تثبيتُه إيَّاهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ. {وفي الآخرة} بمثل الذي ثبَّتهم به في

علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، للعام الجامعي ١٤٣٥- ١٤٣٦ه.

(٢١) الفوائد، ابن قيم الجوزية (ص١١٩).

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) انظر ما قاله ابن تيمية -رحمه الله- في معرفته بأصول البدع وأوائل من ابتدعها في بيان الرد عليهم والتحذير من بدعهم. مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٨٤/٣).

الحياة الدنيا؛ وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ"(٢٤).

وقد تواترت الأحاديث الصحيحة على عذاب القبر، ومساءلة منكر ونكير، قال ابن أبي عاصم(٢٥): "وفي المساءلة أخبار ثابتة، والأخبار التي في المساءلة في القبر منكر ونكير أخبار ثابتة توجب العلم، فنرغب إلى الله أن يُثبِّتَنا في قبورنا عند مساءلة منكر ونكير {بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة} [إبراهيم: ٢٧]"(٢٦). وهذه العقيدة الصحيحة تبيِّن فسادَ قول الرافضة الذين اعتقدوا خلافها، فقالوا بأن أول ما يُسأل عنه العبد في القبر هو حب الاثني عشر، فقالوا: "أول ما يسأل عنه العبد حُبُّنا أهلَ البيت"(٢٧).

وهذا ما يبيِّن أن مخالفة هَدْيِ النبي ﷺ، ونصوص الوحي في أولية المسائل، توقِع بالإنسان في الزَّلَل والخطأ.

ومن الأمثلة المهمة في بيان معرفة الأولية لإبطال فساد منهج المخالفين، ما تتابع عليه علماء الأُمَّة -رحمهم الله- في أن أول من ابتدع الكلام في صفات الله هو الـجَعْد بن دِرْهم؛ فقد قال قولًا لم يسبقه إليه أحد. قال البيهقي -بعد أن ساق قول البخاري في المعطِّلة-: "وقد روينا نحو هذا عن جماعةٍ أخرى من فقهاء الأمصار وعلمائهم رضي الله عنهم, ولم يصحَّ عندنا خلافُ هذا القولِ عن أحدٍ من الناس في زمان الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين، وأولُ مَن خالَفَ الجماعة في ذلك الجعد بن درهم"(٢٨). وفي ذلك يقول شيخ الإسلام -رحمه الله- مبيِّنًا أن الأصل هو اتفاق المسلمين جميعًا على إثبات الصفات لله سبحانه، حتى ظهر فيهم الجعد، بعدما سأل عن تأويل الصفات والقول فيه، فقال: "الحمد لله ربِّ العالمين، هذه مسألة كبيرة، عظيمة القدر، اضطرب فيها خلائقُ من الأولين والآخِرين، من أوائل المائة الثانية من الهجرة النبوية. فأمَّا المائة الأولى؛ فلم يكن بين المسلمين اضطرابٌ في هذا، وإنما نشأ ذلك في أوائل المائة الثانية لـمَّا ظهر الجعدُ بن درهم وصاحِبُه الـجَهْمُ بن صفوان،

---

(٢٤) جامع البيان، الطبري (٦٦٦/١٣).

(٢٥) هو أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الضحاك، أبو بكر الشيباني (٢٠٦- ٢٨٧هـ)، حافظ كبير، إمام، بارع، متَّبِع للآثار، كثير التصانيف، وكان مذهبه القول بالظاهر، قال الذهبي: وفي هذا نظر. وكان ثقة نبيلًا معمَّرًا، أصله من البصرة وسكن أصبهان وولي قضاءها، وكان مصنِّفًا في الحديث مُكثِرًا منه. من تصانيفه: المسند الكبير، والآحاد والمثاني. انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٠٤/٥)، سير أعلام النبلاء، للذهبي (٤٣٠/١٣).

(٢٦) السنة، ابن أبي عاصم (٤١٩/٢).

(٢٧) انظر: الأوائل في مسائل الاعتقاد، سامي المغذوي (ص٢٦٢- ٢٦٦).

(٢٨) الأسماء والصفات، البيهقي (٦١٦/١).

ومَن اتَّبَعَهما من المعتزلة وغيرهم على إنكار الصفات"(٢٩). فهذا ممَّا يبين أن هذه المسألة -وهي معرفة أول من تكلم في صفات الله- لم تكن في عهد الصحابة ولا التابعين، بل ظهرت في القرن الثاني في أواخر عصر التابعين، وهو ما يُبيِّن فسادَها، وأنها مُحدَثَة في دين الله، وأنها خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون، ممن شاهدوا التنزيل(٣٠).

خلاصة الفرق المنهجي:

بناء على ما تقدم، يتبين أن منهج علم الأوائل في العقيدة، هو منهج من مناهج أهل السنة والجماعة؛ لبيان الحق، أو كشف أصول الضلالات وردِّها، وقد استخدمه ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في التفريق بين منهج أهل السنة والمخالفين في فهم المسائل العقدية؛ للتمييز بين الحق والباطل وفقَ منهج السلف الصالح.

المبحث الثالث: المقابلة عند ابن قيم الجوزية بين أهل السُّنَّة والمخالفين

لابن قيم الجوزية عنايةٌ وتميُّز فائق في أسلوب المقارنة بين الفِرَق، ومِن ثَم مقابلتها بمنهج أهل السنة والجماعة، ولكونه من جملة المناهج التي اعتمد عليها ابن قيم الجوزية في بيان الحق وإبطال الباطل، كما برز فيها عدله وموازنته بين مراتب الخير ومراتب الشر؛ كان هذا المبحث لبيان المقابلة بوصفها فرقًا من الفروق المنهجية في نصوصه رحمه الله.

المطلب الأول: الفرق المنهجي في المقابلة

يقول ابن قيِّم الجوزية في الرد على قول المخالفين بأن نصوص الوحي أدلةٌ لفظية لا تفيد اليقين: "وهو أن أرباب هذا القانون الذي منعهم استفادةَ اليقين من كلام الله ورسوله، مضطرِبون في العقل الذي يعارض النقلَ أشدَّ اضطرابٍ؛ فالفلاسفة -مع شدة اعتنائهم بالمعقولات- أشدُّ الناس اضطرابًا في هذا الباب من طوائف أهل الـمِلَل، ومَن أراد معرفة ذلك فليقف على مقالاتهم في كتب أهل المقالات... وأمَّا المتكلِّمون؛ فاضطرابُهم في هذا الباب من أشد اضطراب في العالم، فتأمل اختلافَ فِرَق الشيعة والخوارج والمعتزلة، وطوائف أهل الكلام ومقالاتهم المذكورة في كتب المقالات...".

وبيَّن كيف أن كلَّ فرقةٍ تدَّعي أن صريح العقل معها، وأن مَن خالَفَها فقد خرج عن العقل الصريح. ويبيِّن -رحمه الله- أن جميعهم صدقوا؛ فالحقُّ أن عقل كلٍّ منهم يبطل بعقل الفِرَق الأخرى، ليوجِّه لهم سؤالًا فيقول: "ثم نقول للجميع: بعقل مَن منكم يوزَن كلامُ الله ورسوله؟ وأيُّ عقولِكم تُجعَل معيارًا له، فما وافقه قُبِل وأُقِرَّ على ظاهره، وما خالَفَه رُدَّ أو أُوِّل أو فُوِّض؟ وأي عقولكم هو إحدى المقدِّمات العشر التي تتوقف إفادة كلام الله ورسوله لليقين على العلم بعدم معارضته له؟".

---

(٢٩) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٦/٣٣).

(٣٠) انظر: الأوائل في مسائل الاعتقاد، سامي المغذوي (ص١٠٢- ١٠٣).

وأخذ يُعدِّد عقولَ أئمة الضلال وبعض الطوائف ممن يدَّعون أن عقولهم الأكملُ، وأن الحق معهم، فذكر ثلاثة وثلاثين اسمًا، وبيَّن أنه ترك أضعافهم وأضعاف أضعافهم كلهم يدَّعي أن المعقول الصريح معه، وأن مخالِفِيه خرجوا عن صريح المعقول، ثم قال:

"ولولا الإطالةُ لعَرَضْناها على السامع عقلًا عقلًا، وقد عرضها المعتَنُون بذكر المقالات، فاجمعوها إن استطعتم، أو خذوا منها عقلًا واجعلوه ميزانًا لنصوص الوحي وما جاءت به الرسل، وعيارًا على ذلك، ثم اعذروا بعدُ مَن قدَّم كتاب الله وسُنة رسوله، الذي يسمونه الأدلة اللفظية، على هذه العقول المضطربة المتناقضة بشهادة أهلها، وشهادة أنصار الله ورسوله عليها، وقال: إن كتاب الله وسُنة رسوله يفيد العلم واليقين، وهذه العقول المضطربة المتناقضة إنما تفيد الشكوك والحيرة، والريب والجهل المركب، فإذا تعارَضَ النقلُ وهذه العقول، أُخذ بالنقل الصريح، ورُمي بهذه العقول تحت الأقدام، وحُطَّت حيث حطَّها اللهُ وحطَّ أصحابَها"(٣١).

وفي التفريق ذاته بين عقول المخالِفِين من الفلاسفة والجهمية في المعارضة بين العقل والوحي، بيَّن أن لهم طريقين مختلفين ينقض أحدهما الآخَر، بخلاف طريقة أهل الإثبات الموافِقة لما جاء به الرسول ﷺ، فقال: "إن هؤلاء المعارضين بين العقل والوحي، هم في الأصل فرقتان: الفلاسفة، وجهمية المتكلمين؛ وهؤلاء لهم طريق قد سلكوها، وأولئك لهم طريقة أخرى، وكلٌّ من الفريقين ينقض حجج الفريق الآخَر، ويبين فسادَ طريقته، ثم كلُّ فرقةٍ منهما تنقض بعضُهم حججَ بعضٍ، واعتبر هذا بالرازي والآمدي؛ فإنهما جمعا خلاصةَ ما ذكره النُّفاة من أهل الفلسفة والكلام، ثم إنهما أَفسَدَا عامة تلك الطرق التي سلكوها، فكلُّ طائفة تُبطِل الطريقة العقلية التي اعتمدت عليها الأخرى بما يظهر به بطلانها بالعقل الصريح، وليسوا متفِقِين على طريقة واحدة، وهذا يبين خطأهم كلِّهم من وجهين:

من جهة العقل الصريح الذي يبين به كلُّ قومٍ فسادَ ما قاله الآخرون، ومن جهة أنه ليس معهم معقولٌ اشتركوا فيه، فضلًا عن أن يكون من صريح المعقول، بل المقدمة التي تدَّعي طائفةٌ من النُّظَّار صحتَها، تقول الأخرى: هي باطلة.

وهذا بخلاف مقدِّمات أهل الإثبات، الموافِقة لما جاء به الرسول؛ فإنها من العقليات التي تقبلها فِطَرُ العقلاءِ السليمة، بل الفطر التي لم تفسد متفقة عليها، ولا ينازع فيها إلا من تلقَّى تعلمًا من غيره، لا من موجب فطرته؛ فإنما يقدح فيها مقدمةٌ تقليدية، وهو يدَّعي أنها عقلية فطرية"(٣٢).

وفي شاهدٍ آخَر، يذكر ابن قيم الجوزية اختلافَ الفِرَق في صفات الرب وأفعاله؛ فالمعتزلة أكثرُ اختلافًا من متكلمة أهل الإثبات، والشيعة أعظمُ تفرُّقًا واختلافًا

---

(٣١) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية (٤٦٠/١- ٤٦٩).

(٣٢) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية (٧١٣/٢- ٧١٤).

من المعتزلة، والفلاسفة هم أبعدُ عن الحق، وأعظم اختلافًا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى، ثم يقابلهم بأهل السنة المقدِّمين لنصوص الوحي، فسَلِمت عقائدُهم، واتفقت طرقهم في الإيمان بالله، وبصفاته وأفعاله، فيقول: "إن كل مَن أعرض عن السمع لظنِّه أن العقل يخالفه؛ إذ لكون أدلته لا تفيد اليقين، أو لأنه خاطب الخلق خطابًا جمهوريًّا تخييليًّا، لا خطابًا برهانيًّا، تجد بينهم من النزاع والتفرق والشهادة من بعضهم على بعض بالضلالة بحسَب إعراضهم عن السمع، وكل من كان عنه أبعدَ كان قوله أفسدَ، واختلاف طائفته أشدَّ.

فالمعتزلة أكثرُ اختلافًا من متكلِّمة أهلِ الإثبات، وبين البصريين والبغداديين منهم من النزاع ما يطول ذِكرُه، والبصريون أقربُ إلى الإثبات والسُّنة من البغداديين... وأما الشيعة؛ فأعظمُ تفرقًا واختلافًا من المعتزلة، حتى قيل: إنهم يبلغون ثنتين وسبعين فرقة؛ وذلك لأنهم أبعدُ طوائف الملة عن السُّنة.

وأما الفلاسفة؛ فلا يجمعهم جامع، فتلاعب بالنبوات ولا تقف مع حدودها، وقل بعقلك ما شئت وقد صرت فيلسوفًا حكيمًا، وهم أعظم اختلافًا من جميع طوائف المسلمين واليهود والنصارى...".

ثم أكَّد ابن قيم الجوزية بعبارات جازمة فسادَ مقالات الفلاسفة، وبُعدَهم عن الحق خاصةً في العلم الإلهي، ليأتي بمقابلة لأهل الوحي في تقديمهم النصوص على عقول هؤلاء ومَن تَبِعَهم، فقال: "وأما الإلهيات؛ فإذا شئت مثالًا يُقرِّب إليك حالَـهم، فمَثَلُهم كمثل قومٍ نزلوا بفَلاةٍ من الأرض في ليلة ظلماء، فهجم عليهم العدو فقاموا في الظلمة هاربين على وجوههم في كل ناحية، ولا إله إلا الله كم لهم فيه من خَبْطٍ وخَرْصٍ وتخمينٍ، وليسوا متفِقِين فيه على شيء أصلًا، وأساطينُهم قد صرَّحوا بأنهم لا يصلون فيه إلى اليقين، وإنما يتكلمون فيه بالأولى والأخلق؛ ولهذا ظهر في السالكين خلفهم من الحيرة والتوقف والاعتراف بأنهم لم يصلوا إلى شيء، ما فيه عِبرةٌ لأهل الوحي اتِّباع الرسل المقدَّمين لما نزل به الوحي على عقول هؤلاء وأشباههم"(٣٣).

---

(٣٣) الصواعق المرسلة، ابن قيم الجوزية (ص٥٠٥- ٥٠٨). وانظر: مفتاح دار السعادة، له أيضًا (١١٢٥/٢- ١١٢٦)، حيث قارن ابن قيم الجوزية بين الجهمية والقدرية في إثبات المثل الأعلى لله، فقد شبَّهه القدرية بعباده، كما أن الجهمية ضربوا له الأمثال ومثَّلوه بالجمادات، بل بالمعدومات؛ وذلك مقابل أهل الحق من أهل السنة الذين نزَّهوه عن الشَّبَه والمثال، وأثبتوا لله ما أثبته لنفسه من صفات الكمال، فكانوا أسعد الطوائف بمعرفته، وأحقهم بالإيمان به. وانظر: شفاء العليل، ابن قيم الجوزية (٨/٢)، وهي مقارنة بين فِرَق وأقوال المعطلة، خلاف أهل السنة الذين هداهم الله سبحانه، فأثبتوا الذات والصفات والأفعال وحقائق الأسماء، فسَلِموا من تعطيل هؤلاء كلهم.

المطلب الثاني: الفرق المنهجي بين أهل السنة والمخالفين في المقابلة

يتبين مما تقدم في النصوص السابقة أن ابن قيم الجوزية -رحمه الله- يفرق بين الفِرَق الضالَّة في المعارضة بين العقل والوحي، فيوضح العلاقة بين اختلافهم في العقول والأثر المترتب عليها في أبواب العقائد؛ فإن نتيجة اختلافهم هو ضلالهم في أبواب كثيره، ذكر منها ابن قيم الجوزية أعظمَها وهو باب صفات الرب وأفعاله، وبهذه الطريقة جاءت المقارنة عنده -رحمه الله- بين مناهج أهل الضلال، فأَجمَلَ خطأهم جميعًا في وجهين:

من جهة العقل الصريح الذي تدَّعي كل فرقة أنه معهم، وتبطل كل واحدة الأخرى؛ ومن جهة أن ليس عندهم معقول أو مقدمات صحيحة اتفقوا عليها، فكل فرقة تُبطِل مقدمة الأخرى.

وهذا كله خلاف طريقة أهل السنة، الذين قابَلوا هذه الضلالات بالمنهج الصحيح، وهو تقديم كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ على العقول المضطربة، فجاءت مقدماتُهم صحيحةً، موافِقة للعقل والنقل.

فاتِّباعُ النصوص في كل هذه الفروق والاختلافات بين الفِرَق، هو المنهج المقابل للباطل، وتقديمُه هو الحق الذي سار عليه ابن قيم الجوزية -رحمه الله- متَّبِعًا سلفه الصالح في ذلك، مفرِّقًا بين مناهج المخالفين في تقديمهم للمعقول واختلافهم فيه؛ مما كان له أثره في قُربهم وبُعدهم عن الحق.

فابنُ قيم الجوزية قارن في نصوصه السابقة بين الفِرَق وبين درجاتهم بالقُرب من الحق والبُعد عنه، وذكر الأثر المترتب على ذلك من العقائد الفاسدة، وهي تبعد عن الحق بقدر مخالفة أصحابها وبُعدِهم عن المنهج الصحيح، وبعد ذكر هذه المراتب عنده رحمه الله، بيَّن أن أضلَّ هذه الفِرَق وأبعدها عن الحق في باب الإلهيات هم الفلاسفة، وهكذا من جاء بعدهم؛ فإنه كلَّما كانت طائفة أقربَ لقول الله وسوله، كانت أقربَ للحق عِلمًا وعملًا ومنهجًا، والعكس لما كان الفلاسفة أبعدَ الفرق عن النبوة والأنبياء، كانوا الأضلَّ عن المنهج الحق.

وهذه الطريقة التي سلكها ابن قيم الجوزية -رحمه الله- في مقارنته بين الفِرَق ومقابلتها بالحق منهجٌ عظيم، لا سيَّما في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة؛ فإن الاختلاف يكثر والتعارض يشتد؛ لاختلاط الحسنات والسيئات عند أقوام، فيقع الاشتباه بين الحق والباطل، فيتطلب بيان الحق بهذه المقارنة والمقابلة؛ لمعرفة الخير من الشر، أو ليُقدَّم ما هو أكثر خيرًا وأقل شرًّا على ما هو دونه، ويعطى كل صاحب حقٍّ حقَّه، ومِن ثَم تقديم المنهج الحق الموافق للشريعة، وهو طريق عظيم،

من اعتنى به كان عالـمًا بمنشأ واختلاف الضلالات لكثير من الناس، وقائمًا بالقسط الذي أنزل الله له الكتاب والميزان(٣٤).

المطلب الثالث: نموذج تطبيق المقابلة بين أهل السنة والمخالفين

كانت المقابلة مطروقةً عند المتقدمين بأوجهٍ وصورٍ مختلفة، فقد كان السلف يفرقون بين المخالفين فيما بينهم، ويعطون كل ذي حقٍّ حقَّه، ثم يقابلونهم بعقائد أهل السنة؛ فقد رُوي عن ابن المبارك مقارنة بين طوائفَ عِدَّة، ثم تقرير الحق عند أهل السنة، فقال: "الكذب للروافض، وسوء التدبير لآل أبي طالب، والخصومة للمعتزلة، والزهد للخوارج، والاستحلال لأهل الرأي، والدين لأهل الحديث"(٣٥).

وقد برز هذا المنهج عند شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في أكثر من موضع، فنجده يقارن بين مقالة الجهمية في الإيمان وما نتج عنها من أثر، وبين قول الفلاسفة؛ فرغم شناعة قول الجهمية عند السلف وأثره فيهم وفيمن جاء بعدهم، إلا أن ابن تيمية يؤكد أن مقالة الفلاسفة أكثر سوءًا منهم؛ لما لها من أثر في العبادة، فيقول -رحمه الله-: "وكذلك الجهمية لا تجد في قلوبهم من محبَّة الله وعبادته ما في قلوب عباده المؤمنين؛ بل غاية عابدهم أن يعتقد أن العباد من جنس الفعلة الذين يعملون بالكراء، فمنتهى مقصوده هو الكراء الذي يُعطاه وهو فارغ من محبة الله، والفلاسفة تذم هؤلاء وتحتقرهم كما ذكرنا كلامهم في ذلك في غير هذا الموضع، لكن هؤلاء -أي الجهمية- خيرٌ منهم في الجملة؛ فإنهم يوجبون العبادة ويلتزمونها، ويعتقدون لها منفعةً غير مجرد كونها سببًا للعلم، بخلاف الفلاسفة والمتصوفة المتفلسفة؛ فإن عبادتهم مقصودها الكشف والتأثير... ومما يبين أمر هذا أنهم يقولون: إن الله يلتذُّ ويبتهج؛ وهذا وإن كان قد أنكره طوائفُ من المعتزلة وغيرهم من أهل الكلام ومَن اتَّبعهم؛ فالسلفُ والأئمة وأهل السنة مُقِرُّون بما جاء به الكتاب والسنة مِن محبَّة الله، وفرحه ورضاه وضَحِكِه ونحو ذلك، وما يُثبتون من الحق فهو داخل في هذه المعاني، لكن أهل السنة يعبِّرون بالعبارات الشرعية، فيجمعون بين كمال المعنى واللفظ وموجب العقل والشرع... والمقصود هنا أن النفس ليس كمالها في مجرد علم بالله، لا يقترن به حبٌّ لله ولا عبادة له ولا غير ذلك، بل لا تصلح وتكمل إن لم تحب الله وتعبده"(٣٦).

فالفلاسفة -على سوء مقالتهم- يحتقرون الجهمية، والحقيقة أن الجهمية أفضلُ منهم؛ حيث إنهم يعتقدون أن عبادتهم لها منفعةٌ غير مجرد كونها سببًا للعلم، خلاف

---

(٣٤) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية (٣٦٦/١٠)، شرح الأصفهانية، ابن تيمية (ص١٠١)، الموازنة العقدية عند ابن تيمية دراسة في مراتب الشرور والخيرية، بدر الغامدي (ص٧- ٧١).

(٣٥) ذم الكلام، الهروي (٢١٢/٥)، رقم الأثر: (١٠١٠).

(٣٦) الصفدية، ابن تيمية (٢٣٥/٢).

الفلاسفة والمتصوفة منهم، حيث مقصود عبادتهم الكشف والتأثير، فيدَّعون أن الله يلتذ ويبتهج؛ وقد أنكر المعتزلة هذا القولَ وطوائفُ من أهل الكلام، ثم قابل قول هؤلاء جميعًا بمنهج أهل السنة الذين يقولون: إن الإيمان قولٌ وعمل، فهم عند عبادة الله – سبحانه- يُثبتون صفات الله الفعلية، فيعتقدون أنه يحب المؤمنين ويفرح بتوبتهم، ويتعجب ويضحك، لكنهم لا يعبِّرون بذات العبارات، فبيَّن -رحمه الله- تفاوتَ الطوائف في الحق والباطل، وإدراك تأثير المقالات على العقائد والعبادات، وكل تلك الاختلافات بسبب استمداد المخالفين من مواردَ فاسدةٍ تُعارض ما جاء به الوحي، فكلَّما كان منهج الفرقة أبعدَ عن الوحي جاء ضلالهم أعظمَ، وهذا يكرره ابن تيمية كثيرًا في كتبه فيقول: "وفِرَق أهل الكلام -مع بِدَعِهم وضلالهم- أقربُ إلى الرسول وإلى دين الإسلام، خارجيِّهم وشيعيِّهم ومعتزليِّهم وكرَّاميِّهم، لكن غالب هؤلاء ناظَروهم مناظرةً فاسدة سمعًا وعقلًا، فلا هم عرفوا دين الإسلام في كثير من المسائل التي نازعوهم فيها، بل صاروا يُضيفون إلى دين الإسلام ما ليس منه، ولا قالوا في الاستدلال والجواب عن معارضيهم ما هو حق، بل ردُّوا باطلًا بباطل، وقابلوا بدعةً ببدعة.

لكن باطل الفلاسفة أكثرُ، وهم أعظم مخالفةً للحق المعلوم بالأدلة الشرعية والعقلية، في الأمور الإلهية والدينية من أولئك المبتدعين من أهل الكلام، ولكن ضعف معرفة هؤلاء المتكلمين بالحق وأدلته سلَّطت أولئك"(٣٧).

كما يضرب ابن تيمية مثالًا آخَر بما يُقرِّره النُّفاة من التعطيل كمنهج أصيل عند غالب المخالفين، وإن كانوا يتفاوتون في درجاته، والذي يسمونه بالتوحيد والتنزيه، وكيف أثر كلامهم في إنتاج مقارنات خاطئة، يلزم منها أن تكون أسوأ المقالات والطوائف هي أفضلها، فيقول: "فإنهم يسمون المعاني بأسماءٍ سموها هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، مرتِّبين على ذلك الحمد والذم... فإن كل من كان إلى التعطيل أقربَ، وعن القرآن والإسلام أبعدَ، كان أحقَّ بهذا المعنى الذي تسميه التوحيد والتنزيه.

فإن المعتزلة أحقُّ منهم بهذا؛ لأنهم أحقُّ بنفي الصفات والكثرة، وأحق بنفي الأمور التي يجعلون إثباتها تشبيهًا، والفلاسفة أحقُّ من المعتزلة بهذا، وأهل وحدة الوجود أحقُّ بهذا من الفلاسفة..."، فبقولهم بمنهج النفي والتعطيل، وقلبهم للحق صار أكثرُ الناس إلحادًا وتعطيلًا هم أكثرهم توحيدًا؛ يقول ابن تيمية: "فظهر أن توحيدهم هذا، وتنزيههم هذا، دِهليز التعطيل والزندقة، وأن من كان أعظم تعطيلًا وإلحادًا، كان أحق بتوحيدهم وتنزيههم هذا، وهذا بخلاف ما كان من أهل الإثبات المقرِّين بالتوحيد والتنزيه، الذي جاءت به الرسل عليهم السلام، ونزلت به الكتب"(٣٨).

---

(٣٧) الصفدية، ابن تيمية (٣٢٦/٢- ٣٢٧).

(٣٨) بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية (٤٢٩/١- ٤٣٠).

فأعمَلَ ابن تيمية -رحمه الله- هذا المنهج بشواهد متنوعة، وعبارات متقاربة، ومقابلات كثيرة يرى فيها أن المنهج الأمثل هو المنهج الذي يتمثل القرآن والسنة، وأنه كلما كانت الطائفة أقربَ إلى منهج أهل السنة وعلومها كانت أقرب للحق، وإذا كانت عن الله ورسوله أبعدَ؛ كانت عن منهج الحق أَنْأَى.

فعقدُ هذه المقارنات ومقابلتها بالحق تُنبِّه على التباين الكبير بين طرق الشر وطريق الخير، كما يؤكد ضرورة التمسك بالطريقة الشرعية في بحث مسائل الاعتقاد، والاستدلال عليها.

خلاصة الفرق المنهجي:

منهج السلف المقارنة بين مناهج الضلال عند الفِرَق، وتبيين أبعدها وأقربها للحق؛ لتحقيق العدل، ثم تبيين الحق بمقابلة منهج أهل السنة لطرق الضلال المختلفة، وهذا هو المنهج الحق الذي يعود على جميع الطرق والمناهج السابقة بالنقض والإبطال، وهو ما بيَّنه ابن قيم الجوزية -رحمه الله- وسار عليه.

الخاتمة

بعد استكمال هذا البحث والحمد لله رب العالمين، هذه أبرز النتائج التي ظهرت من خلال هذا البحث:

١. تفريق ابن قيم الجوزية بين المنهجين طريقة متميزة فريدة، التزم فيها ببيان منهج السلف الصالح، متَّبِعًا مَن سبقه من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن جاء بعدهم، كما التزم طريقةَ السلف في بيان منهج المخالفين والرد عليهم ومناقشتهم.

٢. في تفريق ابن قيم الجوزية بين المنهجين تأصيلٌ للسلوك الشرعي الصحيح المبني على الكتاب والسنة، وربطه بالاعتقاد، وهو جزء من منهج أهل السنة القائم على العلم النافع والعمل الصالح.

٣. استقرار منهج السلف في الثوابت والمحكَمات، رغم تباعد العصور وكثرة الطاعنين، ميزة رفيعة أظهَرَها ابن قيم الجوزية في تفريقه بين المنهجين.

٤. منهج أهل الحق واحد لا يتغير ولا يتبدل، خلاف منهج أهل الضلال؛ فإنهم وإن كانوا يتفقون في أصل المنهج، إلا أنهم يختلفون في تطبيق هذا المنهج والتوسع فيه.

٥. معرفة الأوليات في علم العقيدة منهجٌ من مناهج أهل السنة في تقرير الحق، والرد على المخالفين.

٦. اختلاف الطوائف فيما بينها يعزِّز التفاوت، ويؤكد ضرورة المقارنة بين مراتب المقالات والطوائف؛ لبيان المنهج الحق المقابل لاختلافات مناهج أهل الباطل.

التوصيات:

وفي ختام هذا البحث أوصي بما يلي:

١. ضرورة توجيه الجهود العلمية نحو دراسة الفروق بين المناهج في العصر الحديث ومناهج الفِرَق المتقدمة، لا سيما أن منهج أهل السنة ثابتٌ مطَّرِد، ومنهج أهل الكلام، وإن تنوعت الشعارات وتجددت المسائل المطروحة، فإن الأصول واحدة

والطرائق ما زالت متَّبَعة؛ وذلك من خلال الأبحاث، والمؤتمرات، والندوات، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها من وسائل المعرفة المختلفة.

٢. إقامة مؤتمر بحثي يُسهم في دراسة علم المنهج بصورة عامة، ويساعد في ابتكار مزيد من الموضوعات في دراسة المنهج عند أهل السنة، من خلال مصنفات العقيدة للأئمة المتقدمين؛ للإحاطة بطرائق الاستدلال عندهم، بما يعزز اليقين لدى المعاصرين ويرسخ الإيمان لديهم.

٣. إطلاق برامج مختلفة، وتنظيم معارض ومناشط متنوعة دعوية وتربوية تستهدف الدُّعاة والمربِّين والناشئة؛ لتعليم العقيدة وتتبع تاريخها على مر العصور، وتأصيلها، والاستفادة من مناهج وطرق العلماء في الوصول إلى العقيدة السليمة، ورد العقائد الفاسدة والطرق الضالة، بمنهج علمي قائم على الكتاب والسنة.

٤. لا تزال تفاصيل الكثير من المسائل تحتاج إلى مزيد بحث وتحقيق من الباحثين والمهتمين، ومن أمثلة الموضوعات المقترحة:

- التوسع في دراسة علم الأوائل في كتب أهل العقيدة، أو كتب أهل الحديث، دراسة عقدية.

وفي الختام، هذا جهد المقلِّ، أسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصًا لوجهه، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

الأسماء والصفات، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، المحقق: عبد الله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي- جدة، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

الأوائل في مسائل الاعتقاد: جمعًا ودراسة، سامي بن محمد بن الرثيع المغذوي، إشراف الدكتور: عارف بن مزيد بن حامد السحيمي، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العام الجامعي ١٤٣٥- ١٤٣٦هـ.

البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط١، ١٣٧٦هـ- ١٩٥٧م.

بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية (ت٧٢٨ه)، المحقق: مجموعة من المحققين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ط١، ١٤٢٦هـ.

تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله؛ المعروف بابن عساكر (ت ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، ١٤١٥هـ.

التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية- بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

تفسير الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، المحقق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠ه)، المحقق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله -ﷺ- وسُنَنه وأيَّامه = صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ه)، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مُصوَّرة عن الطبعة السلطانية، بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

ذم الكلام وأهله، المؤلف: أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (ت ٤٨١هـ)، المحقق: عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

السنة، أبو بكر بن أبي عاصم أحمد بن عمرو الضحاك الشيباني (ت ٢٧٨ه)، المحقق: محمد ناصر الألباني، المكتب الإسلامي- بيروت، ط١، ١٤٠٠ه.

سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، المحقق: مجموعة من المحقِّقين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.

شرح العقيدة الأصفهانية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية- بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار المعرفة- بيروت، د.ط، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

الصحاح = تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣ه)، المحقق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

الصفدية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية- مصر، ط٢، ١٤٠٦هـ.

الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٨ه.

العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت ١٧٥هـ)، المحقق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ط، د.ت.

الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية- بيروت، ط٢، ١٣٩٣ه- ١٩٧٣م.

الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكَفَوي الحنفي (ت ١٠٩٤ه)، المحقق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، د.ط، د.ت.

مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة الحرَّاني (ت ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية، د.ط، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، المحقق: د. ناصر بن سليمان السعوي، د. علي بن عبد الرحمن القرعاوي، د. صالح بن عبد العزيز

التويجري، د. خالد بن عبد العزيز الغنيم، د. محمد بن عبد الله الخضيري، دار الصميعي، ط١، ١٤٣٢ه-٢٠١١م.

معجم اللغة العربية المعاصرة، الدكتور أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة: (إبراهيم مصطفى- أحمد الزيات- حامد عبد القادر- محمد النجار)، دار الدعوة، د.ط، د.ت.

معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، د.ط، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

مفتاح دار السعادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن قائد، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٣٢ه.

المقابلة في القرآن الكريم، عبد القادر بن عيسى بطاهر، إشراف: الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي، رسالة دكتوراه في تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م.

منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، أحمد بن عبد الحليم، تقي الدين ابن تيمية (ت ٧٢٨ه)، المحقق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، د.ط، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

الموازنة العقدية عند ابن تيمية: دراسة في مراتب الشرور والخيرية، بدر بن سعيد الغامدي، دار العمرية، أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، الرياض- المملكة العربية السعودية، ١٤٤٥ه- ٢٠٢٣م.

موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، المحقق: د.علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

نقد الشعر، قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت ٣٣٧ه)، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، ط١، ١٣٠٢ه.